الجوانب المظلمة في كتابات المستشرقين البريطانين في السيرة النبوية

م.د . محسن راشد طريم
جامعة ذي قار كلية التربية
قسم التاريخ

المقدمة

تعد دراسة كتابات المستشرقين في التاريخ الاسلامي من اهم الموضوعات وذلك للوقوف على ماتضمنته تلك الكتابات ، لاسيما وان عددا منها قد كتبت لاغراض معينة منها المساس بالدين الاسلامي والتشكيك به ، ومهاجمة رموز الاسلام ومحاولة الدس والافتراضات غير المنطقية .

من هذا المنطلق ، ولغرض بيان هذا النوع من الكتابات ومحاولة الرد عليها ، كان اختياري لهذا الموضوع ، متخصصا في المستشرقين البريطانين لكثرة ما حاولوا تشويهه من التاريخ الاسلامي .

قسم البحث الى مباحث فرعية ، المبحث الاول خصص لكتابة نبذة مختصرة عن تطور الاستشراق البريطاني لمعرفة سمات واشكال كتاباتهم في الموضوعات المختلفة وكيفية تعاملهم مع القضايا الاسلامية ، واساليبهم المتنوعة من الهجوم والتشويه الواضح الى محاولة الدس والتشكيك وغيرها من الاساليب التي تحقق غايتها النهائية وهي تشويه التاريخ الاسلامي .

اما بقية المباحث التي يمثلها هذا البحث فهي تتضمن مواقف بعض المستشرقين البريطانين من بعض القضايا الاسلامية وكيفية تعاملهم معها ، وما تضمنته تلك الكتابات من تشويه متعمد للحقائق ، محاولين في الوقت نفسه الرد على تلك الادعاءات ، ومن المواضيع او القضايا الاسلامية التي خصص لها مباحث منفردة موضوع زواج النبي صلى الله عليه واله وسلم من السيدة خديجة عليها السلام وموضوع الوحي ، وتعدد زوجات النبي صلى الله عليه واله وسلم وغيرها من المواضيع الهامة .

اولا : نبذة مختصرة عن تطور الاستشراق البريطاني

بدات الدراسات الاستشراقية في برطانية منذ وقت مبكر فكان هناك عددا كبير من علماء القرون الوسطى الذين اهتموا بدراسة اللغة العربية وادابها(١).

اتجه طلبة العلم من الانكليز الى اسبانيا وصقلية لينهلوا من مناهل العلم العربية ، ولينشروا ماجمعوه من معلومات ، مما ساعد على تطور الدراسات العربية وادى ذلك الى ظهور من نسميهم بالمستشرقين الذين اهتموا بالدراسات العربية ، مما ساهم في زيادة استيعابهم بالنشاط الفكري العربية الاسلامي ، وبالتالي اصبحت هناك جدية بتلك الدراسات التي اثمرت فيما بعد في حقل الاستشراق ، من جمع وتحقيق وتاليف في المجالات المختلفة (٢).

تميزت الدراسات الاستشراقية الاولى بحقدها وعدم وعلميتها ، اذ كانت تهتم بالتبشير بالدرجة الاولى لذلك اساءت الى تاريخ العرب والمسلمين وحضارتهم (٣) فظهر التاريخ الاسلامي في كتابات المستشرقين في تلك الحقبة الزمنية مشوها ، بعد ان فسرها المستشرقون تفسيرا خاطئا ....

ومع ازدياد اطماع بريطانيا في الشرق العربي ، ازداد اهتمامها بالتراث العربي الاسلامي ، حتى ربط البعض بين الاستشراق والاستعمار ، فاعتبروا الاستشراق البريطاني اداة كبيرة للاستعمار ، وانه اسهم في نشر الفرقة بين العرب من خلال تركيزه على نشر الدراسات الطائفية وتشويه تاريخ العرب المسلمين وفي الحقيقة ان جزاء كبيرا من الاستشراق البريطاني في تلك الحقبة كان كذلك رغم وجود بعض الدراسات

الجيدة والمنصفة من قبل بعض المستشرقين البريطانيين .
بدات حركة الاستشراق في بريطانيا تاخذ صورا عملية ملموسة في القرن السابع عشر الميلادي ، اذ استحدث منصب للاستاذية في اللغة العربية في الجامعتين المعروفتين كمبرج واكسفورد(٥) ، فقام اساتذة انكليز بتدريس اللغة العربية لعدد كبير من الطلبة الذين اقبلوا على دراستها بلهف ورغبة وطبعت الكتب العربية في انكلترا لاول مرة (٦) ، واصبحت بين ايدي الطلبة الذين اهتموا بدراسة الاداب والعلوم العربية الاسلامية ، ساعدهم في ذلك معرفتهم باللغة العربية (٧).
اما في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين فقد بدات تظهر على كتابات المستشرقين البريطانين سمات مختلفة نسبيا عن القرون السابقة ، فحدث تطور لدى هءلاء المستشرقين ، اذ بداوا بالتعامل مع التاريخ الاسلامي بشيء من الواقعية والانصاف لدى عدد كبير منهم ، وتجاوزوا التهجم والتشويه المتعمد للتاريخ الاسلامي (٨) ، لهذا الفت اعداد كبيرة من المؤلفات البريطانية التي درست التاريخ الاسلامي بشكل مقبول ومنصف لاسيما في مجال دراسة السيرة النبوية التي تعرضت للتشويه في الدراسات السابقة .
ويبدو ان ذلك التعامل المنصف مع التاريخ الاسلامي من قبل المستشرقين البريطانيين كان جزاءا من النهضة الاستشراقية الاوربية التي حدثت في تلك الحقبة (٩) ، والتي اثمرت على انشاء العديد من المراكز والمدارس المتخصصة بالدراسات الاسلامية في العديد من العواصم الاوربية في البلدان العربية التي وقعت تحت الاستعمار الاوربي في تلك الحقبة (١٠) ، ومع ذلك لم تخل كتابات المستشرقين البريطانيين من التعرض السيء للتاريخ الاسلامي ، وان تغير اسلوب البعض منهم ،من التهجم الواضح الى الدس والتشكيك والتخيل البعيد عن الواقع عند تحدثهم عن التاريخ الاسلامي

ثانيا : -موضوعات تاريخية اسلامية تعرضت للتشويه من بعض المستشرقين البريطانيين

١-زواج النبي صلى الله عليه واله وسلم من السيدة خديجة عليها السلام

استغل بعض المستشرقين البريطانين روايات مدسوسة في التاريخ الاسلامي فبنوا عليها تخيلاتهم وتصوراتهم واضافوا مااضافوه مع الاسف الشديد فان مصادرنا الاسلامية فيها الكثير من الروايات غير المقبولة التي استفاد منها المستشرقون بشكل كبير واقصد بالمستشرقين اولئك الذين يتقصدون الاساءة الى التاريخ الاسلامي .
فسر بعض المؤرخين المسلمين زواج الرسول صلى الله عليه واله وسلم من السيدة خديجة عليها السلام بانه زواج اقيم بالخديعة وان السيدة خديجة عليها السلام قد تحايلت لتحقيق ذلك الزواج وكانهم يوحون بذلك الى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن كفوا لها وان لم يقصدوا بالطبع ذلك بل القصد ان قلة مال الرسول صلى الله عليه واله وسلم كانت عائقا امام هذا الزواج فلجاءت السيدة خديجة عليها السلام الى الخداع لاتمام الزواج وقد اشارت رواية خالد بن خداش الى ذلك مباشرة (وانهم تواطؤا الى ان يتزوجها رسول الله صلى الله عليه واله وسلم وان ابا خديجة سقي من الخمر حتى اخذت منه) (١١)
اعطت هذه الرواية المستشرقين الفرصة لكي يكيلوا التهم للرسول صلى الله عليه واله وسلم وزوجته الطاهرة ، فقال المستشرق الانكليزي بودلي ((لو ان محمدا كان من عليه القوم الاربعمائة ولو انه كان من اعضاء الندوة الاثرياء او احد بني المطلب عاشوا حول الكعبة ... نقض ذلك))(١٢) ، ثم يضيف الى ذلك الطريقة التي اقنعت السيدة خديجة عليها السلام عمها بالامر فقال ((وقامت خديجة في نفس الوقت تمسح على راس عمها بالزعفران والعنبر ودوت في اركان بيت خديجة اصوات التهليل وصار زواج محمد من خديجة امرا واقعا ، وما كانت خديجة بالمندفعة في هذه الفرصة السائحة فقد كانت تعلم فعل الخمر في النفوس وحين كان يربت على كتف صاحبه ويتقارعون الكؤوس ويتفاخرون ، جاء من يكتب العقد وفي هذا الجو الذي يغلب عليه الصفاء اتفق على الصداق وتم عقد القران وانتهى الامر ، وصار محمد يعد بعلا لخديجة بحسب شريعة مكة))(١٣) ، يبدوا ان بعض الروايات الموجودة في بعض مصادرنا الاسلامية قد اعطت المبرر لبعض المستشرقين ليكتبوا ما شاءوا ، فصوروا الرسول صلى الله عليه واله وسلم وكانه من عائلة مغمورة في مكة ، وكان شخص لاقيمة له والرد على ذلك التصور والكلام لدى المستشرق بودلي قد يطول اذا ما تحدثنا عن مكانة الرسول صلى الله عليه واله وسلم الا اننا نكتفي بالقول ان بني هاشم كانوا الاكثر شرفا ونسبا من قريش ، وان التفكير السليم ورجاحة عقل السيدة خديجة عليها السلام هو الذي دفعها الى طلب الزواج من النبي صلى الله عليه واله وسلم الذي وافق على هذا الطلب ، لاسيما وانها سمعت الكثير عن اخلاقه وامانته وحسن سيرته .

٢- موقفهم من نزول الوحي

الوحي امر تنزيل من جانب الله تعالى لينفذه الموحى اليه ، وهي خاصة من خواصه (١٤) وفي ذلك يقول الله تعالى :

((قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي انما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل صالحا ولايشرك بعبادة ربه احدا)) (١٥) ويقول تعالى ايضا ((وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا من وراء حجاب او يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء انه علي حكيم))(١٦) وحادثة نزول الوحي على الرسول الامين صلى الله عليه واله وسلم اوردتها المصادر الاسلامية وتضمنت تلك المصادر بعض الروايات غير المقبولة ، والتي استغلها بعض المستشرقين فكتبوا ماشاؤوا من الافتراضات وحاولوا انكار حادثة نزول الوحي وفسروا تلك الحادثة تفسيرات خاطئة ، وروايات نزول الوحي التي ذكرتها المصادر الاسلامية جاءت بالشكل الاتي :
وذكر الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها انها حدثته : ان اول مابدي به رسول الله صلى الله عليه واله وسلم من النبوة حين اراد الله كرامته ورحمة العباد به ، الرؤيا الصادقة : لايرى رسول الله صلى الله عليه واله وسلم رؤيا في نومه الا جاءت كفلق الصبح وقالت ، وحبب اليه الخلوة ، فلم يكن شيء احب اليه من ان يخلو وحده (١٧) ولما بلغ الرسول صلى الله عليه واله وسلم اربعين سنة نزل عليه الوحي وكان مبعثه في شهر ربيع الاول وقيل في رمضان (١٨) .
كما جاء في روايات المصادر الاسلامية عن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم قوله : جاءني جبريل وانا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ قال : قلت : ما اقرأ ؟ قال : فغتني به حتى ظننت انه الموت ثم ارسلني فقال : اقرأ قال : ما اقرأ قال فغتني به ظننت انه الموت فقال اقرأ قلت ماذا اقرأ ؟ قال فغتني به حتى ظننت انه الموت ثم ارسلني فقال اقرأ قال قلت ماذا اقرأ ؟ ما اقول ذلك الا افتداء منه ان يعود لي بمثل ماصنع بي فقال : ((اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم))(١٩) قال فقرأتها ثم انهى فانصرف عني وهببت من نومي فكانما كتبت فب قلبي كتابا قال : فخرجت حتى اذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول يامحمد انت رسول الله وانا جبريل قال فرفعت رأسي الى السماء انظر فاذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في افق السماء يقول يامحمد انت رسول الله وانا جبريل قال فوقفت انظر اليه فما اتقدم وما اتاخر وجعلت اصرف وجهي عنه في افاق السماء قال : فلا انظر في ناحية منها الا رايته كذلك فما زلت واقفا ما اتقدم امامي وما ارجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي فبلغوا اعلى مكة ورجعوا اليها وانا واقف في مكاني ذلك ثم انصرف عني (٢٠).

تلك هي رواية المصادر الاسلامية على نزول الوحي والمستشرقون تعاملوا مع تلك الرواية بحذر فان اكدوها فهذا يعني صدق نبوة محمد صلى الله عليه واله وسلم وهذا ما لا يريدوه لذلك نجدهم ياخذون من تلك الرواية مايفيدهم من تحقيق غايتهم الكبرى وهي انكار نبوة محمد صلى الله عليه واله وسلم ويحذفون من الرواية كل ماهو عكس ذلك ثم يعطون افتراضات واستنتاجات مختلفة ليصلوا في النهاية ان لا وحيا ولا دينا جديدا جاء بعد الديانات السابقة .
قال بعض المستشرقين من الانكليز مایاتي ((ان محمد لم يكن يؤمن بما كان يوحى اليه وانه لم يتلق الوحي من مصدر خارجي عنه بل انه الف الايات عن قصد ثم اعلنها للناس بصورة خدعهم بها وجعلهم يتبعونه فضمن لنفسه بذلك من يرضي طموحه ....)) (٢١).
ثم رد وات على ذلك القول فزعم ان محمد صلى الله عليه واله وسلم كان مخطئا فيما يراه وان كان صادقا في قول ما اعتقده فيقول (القول ان محمد كان صادقا لايعني ان القران وحي حق وانه من صنع الله ، اذ يمكن ان نعتقد بدون تناقض ان محمدا كان مقتنعا بان الوحي ينزل عليه من عند الله وان نؤمن في الوقت نفسه بانه كان مخطئا) (٢٢).
نلاحظ هنا انه وان اراد ان يوصل فهمه الخاص من ان النبي صلى الله عليه واله وسلم رأى شيئا فاعتقده الوحي وابلغ الناس بمعنى انه صور الرسول صلى الله عليه واله وسلم بالرجل الذي يرى اشياء لا وجود لها فكان الوحي من ضمن تلك الاشياء التي تصور النبي صلى الله عليه واله وسلم انه راها .
يرد احد الباحثين على ادعاءات (وات) فيقول ((الكاتب (وات) لايريد اذا ان يقول ان محمدا راى جبريل لان هذا يجعلها رؤية غير تاريخية ماذا يعني هذا ؟ ايعني ان (وات) لايعد من التاريخ الا ما كان امرا حسيا ؟ الم يقل لنا في بيان منهجه انه مؤمن وليس ماديا ؟ فما الذي حدث الان ؟ الواقع ان وات ككثير من غيره من المستشرقين لا يتحدث عن الاسلام وينتقده الا وهو ملتحف برداء العلمانية والمادية)) (٢٣) .
ثم يحاول نفس الباحث تفسيرا اصرار وات على اعتقاد النبي صلى الله عليه واله وسلم على ان ماراه هو الله فيقول ((قد تقول فلماذا اذن اختاره ان يكون ما راه محمد هو الله فهذا اكثر بعدا في نظر العلماني ؟ واقول اختاره لسبب جوهري هو التشكيك في ان القران وحي من الله وذلك بعدة وسائل منها :-
اولا : ان كل عاقل يفهم ان الله تعالى لايرى عيانا في هذه الحياة الدنيا فاذا كان محمد قد ان ما راه كان الله فهذا يجعل رؤياه من قبيل الهلوسة والوهم والخيال .

ثانيا : ان محمدا يكون متناقضا في كلامه فهو يقول اولا انه راى الله ثم يقول اخيرا (لاتدركه الابصار)
ثالثا : ان محمدعندما لاحظ خطاه اعتذر عنه باضافة انه (ما كذب الفؤاد ما راى)
رابعا : ان محمدا لم يكن يعرف ان الله لايرى وانما تعلم ذلك من اهل الكتاب فيما بعد ولذلك غير رايه وقال انه راى جبريل ...)) (٢٤)
ويرد عليه الدكتور حسن الحكيم قائلا : (ان المستشرق (وات) قد اصدر رايه هذا اعتمادا على الطبري في بعض روايته عن جابر بن عبدالله حول سورة المدثر اذ يقول محمد صلى الله عليه واله وسلم في الرواية : سمعت صوتا يناديني فنظرت حولي فلم ارا احدا فرفعت راسي فاذا هو جالس على العرش (ج٢ ك٢. ٣) ويبدو ان المستشرق وات قد اغفل ماورد في القران الكريم لاتدركه الابصار لانه لو اقر بهذه الحقيقة لاعتقد ان القران الهي فهو من جهة اراد ابراز التناقض في مسالة رؤية الله))(٢٥)
رغم ذلك فان المستشرق وات وغيره من المستشرقين يحاولون دوما انكار نزول الوحي او يصورون ماراه النبي صلى الله عليه واله وسلم هو وحي منزل من قبل الله تعالى وفي ذلك يقول احد الباحثين : اذا كان الوحي فعلا متميزا فهو صادر عن فاعل مريد وهذا الفاعل المريد هو الله تعالى وليس الالهام والكشف كذلك)) (٢٦)
ويضيف قائلا :((ان حالات الكشف والالهام والايحاء حالات لاشعورية ولا اراد به والوحي ظاهرة شعورية تتم بالوعي والادراك والتامين الوحي بالمعنى المشار اليه يختص بالانبياء وليس الالهام او الكشف كذلك فهما عامان وشائعان بين الناس))

٣- موقفهم من القران الكريم

شك بعض المستشرقين البرطانين في قدسية القران الكريم وفي كونه منزلا من قبل الله سبحانه وتعالى فادعوا في كتابات البشر وان كان فيه روعة وجمالية.
يقول المستشرق البريطاني جيوم : (القران من النصوص الادبية العالمية التي لايمكن ترجمتها دون ان تفقد قيمتها ففيه جرس له جمال عجيب وتاثير تطرب له الاذن وكثير من المسيحين العرب يتحدثون باعجاب شديد عن اسلوبه وقد اخذ اكثر المستشرقين بروعته وحينما يتلى القران نجد ان له تاثيرا ساحرا يجعل المستمع لايلقي بالا الى تركيب جملة العجيب ا والى مايحتويه في بعض الاحيان من مسائل تزهدنا فيه نحن المسيحين وهذه الصفة التي في للقران بما تجعل في لغته رنة حلوة والتي تخرس أي نقد له قد ادت الى نشوء الاعتقاد بان القران لايمكن محاكاته والحقيقة المؤكدة انه ليس في الادب العربي وعلى خصوبته واتساعه في النثر والشعر مايمكن مقارنته بالقران) (٢٨) .
وبعد هذا الكلام يبداء هذا المستشرق بطرح رؤياه عن المجتمع الاسلامي وكيفية العاملة مع القران فيقول ((في كثير من الاماكن يطلب الى الاطفال دون العاشرة ان يحفظوا عن ظهر قلب اياته البالغة ٦٢٠٠ اية وهم يقومون بهذا المجهرد الضخم على حساب قوتهم العقلية وذلك التفكير جدي الا قليلا)) (٢٩).
يحاول جيوم هنا ان يؤكد على ان المجتمع الاسلامي قاس على اطفاله بحيث يجبرهم على حفظ القران الكريم باكمله لمن هم دون سن العاشرة في حين ان المناهج التربوية للدول الاسلامية وكما هو معروف تتدرج في تحفيظ الطلبة الصغار الايات القرانية وتبدا معهم في السور القصيرة وان حدث وحفظ البعض منهم القران الكريم فهذا ناتج من موهبته ونبوغه في ذلك وهو لايؤدي الى انهاك اذهانهم بل على العكس من ذلك تماما نجدهم فيما بعد من ذوي التفكير السليم.
ويواصل جيوم تهجمه على قدسية القران فيقول ((الصورة الكتابية ليونس والياس ماخوذة بالطبع من اليونانية ولو كان احد من هؤلاء المشاهير معروفا لمن كانوا يصغون الى محمد فلا يمكن ان نعقل ان تلقى اليهم هذه الاسماء في صورتها اليونانية او الارامية واذا كانوا يعرفون هذه الاسماء فلا بد ان يكونوا قد سمعوها من اليهود او النصارى ولهذا فان اهل مكة حين اتهموا الرسول بتاليف القران بمساعدة اجانب يكتبون له اساطير الاولين ليل نهار كان لديهم مايبرر هذا الاتهام وذلك حين نجد دليلا لغويا واضحا الى جانب الاساطير الموجودة في التلمود مثل رفض الشيطان السجود لادم وهذه القصة من اصل اجنبي فكيف يدعى ان القران عربي اصيل ؟!)) (٣٠)
وقد علق مترجم الكتاب على ادعاءات جيوم قائلا ((ان القران عربي اصيل والا لما كان معجزة بالنسبة للعرب ومعنى كونه معجزة انهم فهموا لغة ومعنى ولم يستطيعوا محاكاته ... ان الكلمات التي جاءت في القران والتي هي من اصل اجنبي انما دخلت اللغة العربية باختلاط العرب بالامم الاجنبية المحاورة لان البيئة العربية لم تكن مختلفة)) (٣١) .
ونحن نقول ان القران الكريم عربي اصيل ، وهو حكمنا في كل المجالات بما فيها اللغة العربية وعلماء اللغة يستندون الى مفردات وقواعد في اللغة والنحو وليس العكس وعدم استيعاب جيوم لانفتاح المجتمع العربي قبل الاسلام واختلاطه بالاقوام الاخرى هو الذي جعل ادراكه مثقلا بتلك المغالطات ولعل ذلك ناتج بالتاكيد الى هدفه الرئيسي وهدف من هم على منهجه بانكار النبوة والتشكيك بالقران بل لم يكتف بذلك حيث ادعى ان ذوي التفكير السليم والثقافة العالية هم

مدركون على ان القران من صنع البشر فيقول جيوم ((لعل اهم سؤال في الموضوع هو الى أي حد تاثر المسلمون المحدثون بالنقد التاريخي الحديث وبالفلسفة الحديثة والعلم الحديث ؟ الاجابة على هذا السؤال تؤكد ان الذين تلقوا العلم في جامعات الغرب هم وحدهم الذين يفهمون هذه الامور فهما صحيحا ومع انهم فئة قليلة الا انه يستحيل اغفال شانهم ، ونظرة هؤلاء الى القران كما يتضح من الحديث معهم – ليس هي النظر التقليدية كما انهم ينظرون الى الحديث ايضا معين النقد ومنهم – كما سنرى – من خاض في الحديث دون ادنى خوف اما انهم يتناولون القران على انه من صنع الانسان حتى ولو كان هذا الانسان ملهما فهذا ما لا يجراون على الخوض فيه اذ ان سلطة العلماء كبيرة بالنسبة لهم كما ان أي منصب في الخدمة العامة سيحرم عليهم لو انهم عبروا عن شكوكهم فيما اذا كان القران هو حقا كامة الله)) (٣٢) .

ويستشهد على ذلك بما حدث للدكتور طه حسين الذي فصل من وظيفته في الجامعة لانه ناقش في احد كتبه ما اذا كان ابراهيم واسماعيل قد وجدا في وقت من الاوقات (٣٣) .

يبدوا الكاتب هنا وكانه قد امن ايمانا مطلقا بان القران من صنع انسان وان العقل والمنطق يؤكدان ذلك وان الطلبة المسلمين الدارسين في الغرب بعضهم من ذوي العقول السليمة كما يراها هو يؤيدون ذلك .

والواقع ان العقل والمنطق يؤكدان بكل وضوح ان القران لايمكن ان يكون الا من الله سبحانه وتعالى ومافيه من دلائل ومعجزات وانباء كلها تدلل على عظمة هذا الكتاب واستحالة ان تصدر كلماته من انسان مهما بلغت به درجة الذكاء والاطلاع ومهما تلقى مساعدات من رجال دين نصارى ويهود كما يزعمون .

اما قوله بان من يشكك في القران في المجتمعات الاسلامية سوف يطرد من وظيفته فهذا يدفعنا الى سؤاله هل المجتمعات غير الاسلامية تبقي من يسيء السيرة والسلوك في وظيفته ؟ اذا كان الجواب لا فان من اكبر مظاهر سوء السلوك في المجتمعات الاسلامية هو الكفر بالله والتشكيك في كتابه المقدس وفي عقائد المجتمع .

٤- موقفهم من المعارك الاسلامية

صور البعض من المستشرقين البرطانيين معارك وغزوات الرسول صلى الله عليه واله وسلم على انها حروب هدفها الاغارة والنهب والسلب وان التاريخ الاسلامي هو تاريخ دموي وان الاسلام لم ينتشر الا بالسيف فكتبوا في ذلك الكثير ساعين من خلال ذلك اغفال الجوانب المشرقة والحضارية في الاسلام ودخول الكثير من الشعوب والامم في الدين الاسلامي رغبة وطواعية واقتناعا به .

لهذا نجد كتاباتهم لاتخلو من التاكيد على عنف الاسلام ودور السيف في نشر الاسلام الى مختلف الشعوب والقبائل والامم والزعم بان النبي محمد صلى الله عليه واله وسلم رجل يحب القتال وان اصحابه رجال يعشقون الغزوات والسلب .

يقول وات ((كانت مسالة اخرى تشغل تفكير محمد وهي انه كان يحرم القتال والنهب بين المسلمين وبهذا اذا دخل عدد كبير من القبائل او قبلت زعامة محمد لها فكان عليه ان يبحث عن تنفس اخر لطاقتها وقد نظر محمد الى المستقبل ووجد انه يجب توجبه غرائز السلب والنهب عند العرب نحو الخارج نحو المجتمعات المجاورة لشيه الجزيرة كما ادرك الى حد ما ان نمو طريق سورية هو اعداد للتوسع ...)) (٣٤).

يحاول وات هنا ان يبين ان غرائز العرب موجهة نحو السلب والنهب فهم في نظره لا يحتوي تاريخهم الا المعارك والنزاعات كما ان الاسلام لم يتمكن ان يهذب تلك الغرائز ولا نعرف لماذا لم يجد وات غير هذا التفسير للحروب التي خاضها المسلمون ؟ الا يعرف وات ان المسلمين قد تركوا موالهم ومنازلهم في مكة بعد الهجرة وان كثير منها قد نعرض للسلب من قبل كفار قريش ؟ ثم الا يعرف وات ان كثيرا من حروب النبي صلة الله عليه واله وسلم كانت دفاعية لعل من ابرزها احد والخندق وغيرها ؟ وهل تجاهل وات نقض اليهود لاتفاقياتهم مع الرسول صلى الله عليه واله وسلم ومحاولاتهم قتله اكثر من مرة كانت اسبابا لشن الحرب عليهم ؟

اننا نعجب ان يعمد كثير من المستشرقين الى ذلك التوجه والى استخدام مفردات غير لائقة ومعان غير صحيحة وادعاءات مغرضة فهذا مستشرق اخر يقول ((ولما كان المهاجرون معدمين من الناحية الاقتصادية ولا يرغبون في ان يعتمدوا كليا على المدنيين فقد تحولوا الى المهنة الوحيدة الباقية وهي السطو وقد عبر الكتاب الاوربيون عن استيائهم البالغ وهم محقون في ذلك راوا ان رسول الله يقود المسلمين في غارات على قوافل التجار من اجل الحصول على الغنيمة الا انه طبعا لظروف ذلك الزمن وطبقا لمبادى العرب الاخلاقية كان السطو مهنة طبيعية وشرعية وقيام الرسول بمثل ذلك العمل لايلحق به أي عار)) (٣٥).

ثم ياتي مستشرق اخر يتباكى على ماحدث للمجتمعات من جراء الفتوحات الاسلامية ويصفها بالاعصار الصحراوي الذي داهم ممالك متحضرة فيقول ((والعرب الذين هبوا في خلال نصف قرن كانهم اعصار صحراوي ونزحوا من بلاد الحجاز الى حين

يرون عمد هرقل في الغرب كما نزحوا الى حدود الهند من الشرق استطاعوا ان يفتحوا ممالك كانت متحضرة بالفعل) (٣٦)
يحاول هؤلاء وغيرهم تفسير التاريخ الاسلامي على انه همجي وحكمه استبدادي .(٣٧)
وانه ما كان له ينتشر ويبقى لولا الدموية والاستبدادية ، كما تباكى بعض المستشرقين احيانا على خصوم النبي خاصته اليهود فيصف برنلرد لويس نصر المسلمين في خيبر ((بان اول احتكاك بين الدولة الاسلامية وشعب مقهور غير مسلم)) (٣٨)
وكان قبل ذلك قد وصف لويس الوثيقة التي كتبت بين الرسول صلى الله عليه واله وسلم واليهود في المدينة بانها اولى نحو الحكم الاستبدادي الاسلامي (٣٩) .
رغم ذلك فقد تصدى بعض الكتاب المسلمين لتلك المزاعم وفندوها فيقول عباس محمود العقاد في دفاعه عن حروب النبي صلى الله عليه واله وسلم ((انما الاسلام انما يعاب عليه ان يحارب بالسيف سلطة تقف في طريقه وتحول بينه وبين اسماع المستعدين للاصغاء اليه لان السلطة تزال بالسلطة ولا عنى في اخضاعها عن القوة . (٤٠)
ويقول ايضا ((ان الاسلام في بداية عهده كان هم المعتدى عليه ولم يكن من قبله اعتداء على احد ولقد صبر المسلمون على المشركين حتى امروا ان يقاتلوهم كما يقاتلون المسلمين كافة .... وحروب النبي صلى الله عليه واله وسلم كما اسلفنا كانت كلها حروب دفاع ولم تكن منها حرب هجوم الا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الايقان من نكث العهد والاصرار على القتال وتستوي في ذلك حروبه مع اليهود او مع الروم)) (٤١).
ان من الواجب على هؤلاء المستشرقين ان يتفهموا معارك الرسول صلى الله عليه واله وسلم واسبابها وان يكونوا منصفين ومنطقيين في التعامل مع ذلك الموضوع اضافة الى ذلك الاسلام قد هذب في نفوس العرب بعض مابقي من اثار في الجاهلية فلا رغبة في السطو والنهب وانما رغبة في نصر الدين الاسلامي ولم تكن الفتوحات الاسلامية الا من بواعث دينية على عكس مايقوله احد المستشرقين بان البواعث الدينية لم تكن تسربت الاقليلا في نفوس ابطال الجيوش العربية الذي يصف ايضا تلك الفتوحات بانها ((هجرة جماعية نشيطة قوية الباس دفعها الجوع والحرمان الى ان تهجر صحاريها المجدبة وتحتاج بلادا اكثر خصبا كانت ملكا لجيران اسعد منهم حظا)) .(٤٢)
وهذا الوصف فيه مغالطات كثيرة ويكفي ان نعرف ان المسلمين لما قاموا بتلك الفتوحات ووصلوا الى تلك البلدان التي يصف اهلها بانهم كانوا اسعد حظا لما وصل اليهم المسلمون ازدهرت كثير من مدنهم حضاريا واصبحت مراكز للعلم والحضارة والتقدم كل ذلك بفعل دخول الاسلام اليها وما حققه المسلمون القادمون كما يقولون من الصحاري المجدبة من منجزات حضارية .
كما ان مبادى الاسلام تقوم على اساس السلام وليس الحرب والتسامح وليس العنف وما حدث من حوادث عرضية لم بفهمها ولم يقبلها بعض المستشرقين كان لها ما يبررها ، لحماية الدين الاسلامي ، والدفاع عن ابناء المجتمع الاسلامي والانسانية بصورة عامة .

٥- موقفهم من تعدد زوجات النبي صلى الله عليه واله وسلم

في الوقت الذي اشار فيه بعض المستشرقين الى ان النبي صلى الله عليه واله وسلم كان من النساك وذلك من خلال عزلته التقليدية قبل البعثة وان هؤلاء النساك اهملوا الرغبات الخاصة بهم (٤٣) خاصة وان النبي صلى الله عليه واله وسلم كان في عنفوان رجولته في تلك الفترة التي كان يقضيها في العزلة والتعبد بعيدا عن اهله وزوجته رغم ذلك نجد كثير من المستشرقين يتهمون الرسول الكريم صلى الله عليه واله وسلم بانه رجل مزواج وذو رغبات قوية في النساء فيقول المستشرق وات ((نعلم من بعض الوثائق ان محمد بالاضافة الى زيجاته الشرعية واتصالاته بالجواري كنت له علاقة مع نساء اخريات وذلك حسب النظام الاممي القديم)) (٤٤) وهم يستغربون من خصوصية النبي صلى الله عليه واله وسلم في زواجه من عدد من النساء فيصفونه بالرجل الشهواني دون ملاحظة ومعرفة اسباب ودوافع تلك الزيجات فهذا المستشرق وات يدعي ظلما ان للرسول علاقات غير شرعية مع نساء غير زوجاته وجواريه كما يقول وهذا تهجم واضح على شرف النبي صلى الله عليه واله وسلم كما تهجم على شرف ازواجه الطاهرات حين يقول ((وتفسر لنا عدة روايات اسباب هذه التشريعات (الحجاب) فقد بقي بعض المدعوين اثناء حفلة زفاف زينب بنت جحش وقتا طويلا وكذلك لامست ايدي بعض الرجال ايدي نساء محمد وكانت نساء النبي يخرجن في الليل لقضاء حاجاتهن فيهينهن بعض المنافقين)) (٤٥)
ثم تتصاعد عنده وتيرة التهجم على شرف النبي وازواجه فيقول ((من بين الشائعات التي انتشرت لتشويه سمعة عائشة شائعة تقول بانها قبل فرض الحجاب تحدث عدة مرات مع الشاب الذي عاد بها الى المدينة)) (٤٦)
يحاول هنا وات تشويه سمعة السيدة عائشة رضي الله عنها وبالتالي المساس بشرف النبي صلى الله عليه واله وسلم من خلال عرضه لهذه الشائعة التي يزعم انها كانت تنشره ونحن نعلم جيدا ان السيدة عائشة

رضي اللها عنها اشرف من النيل بهذه التهمة ويكفي ان الله سبحانه وتعالى قد براها من اقاويل الناس حول الحادثة المعروفة بالافك .

لنعد الى موضوعنا الرئيسي وهو تعدد زوجات النبي وموقف المستشرقين عنها فعلى الرغم من موقف (وات) وماذكره بشان ملاقات الرسول صلى الله عليه واله وسلم بالنساء الا انه مع ذلك فسر دوافع تعدد ازواجه بانها لاسباب سياسية (٤٧) ومع ذلك فان الطابع العام للمستشرقين البريطانيين في التعامل مع قضية تعدد ازواج النبي صلى الله عليه واله وسلم يغلب عليه التجني والاتهامات غير الصحيحة لاسيما مسالة زواجه من السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها وما قالوه فيها ، وما اتهموه به النبي صلى الله عليه واله وسلم من اتهامات .

يقول العقاد (قال لنا بعض المستشرقين ان تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية قلنا انك لاتصف السيد المسيح بانه قاصر الجنسية لانه لم يتزوج قط فلا ينبغي ان تصف محمد بانه مفرط الجنسية لانه جمع بين تسع نساء) (٤٨) .

والاهم من ذلك ان على المستشرقين ان يعرفوا دوافع تلك الزيجات خاصة انه قضى فترة طويلة من شبابه متزوجا من ارملة اكبر منه سنا بكثير وهي السيدة خديجة عليها السلام ولم يتزوج عليها الى وفاتها فكيف يدعون بعد ذلك انه كان رجلا شهوانيا ؟

اما زواجه من البقية فكان كما هو معلوم لاسباب عديدة سياسية منها واجتماعية فقد تزوج من السيدة سوْدة بنت زمعة رضي الله عنها بعد وفاة زوجها ، الذي هاجرت معه للمدينة ، فلم يبقى احد بعده .

ورملة بنت ابي سفيان رضي الله عنها تركها زوجها بعد ان تنصر بالحبشة ، فطلبها النبي صلى الله عليه واله وسلم خوفا عليها .

وام سلمه رضي الله عنها امراة مسنة حين تزوجها النبي صلى الله عليه واله وسلم ، وجويرية بنت الحارث تزوجها ليعتقها اذ كانت احدى السبايا ، وحفصة بنت عمر رضي الله عنها عرضها ابوها على النبي صلى الله عليه واله وسلم بعد وفاة زوجها ، وزينب بنت جحش رضي الله عنها هي ابنة عمة النبي ، وكان قد زوجها زيد بن الحارثة رضي الله عنه ولم يكن له نفس بها غير ان حكم الله سبحانه ، ورغبته ببيان بعض الاحكام الاسلامية الشرعية ، اضافة لتكرار المشاكل بين زينب وزوجها كانت من مسببات ذلك الزواج .

ولعل عائشة رضي الله عنها هي البكر الوحيد بين ازواج النبي صلى الله عليه واله وسلم (٤٩)

وبعد بيان معظم اسباب زيجات الرسول صلى الله عليه واله وسلم اين فيها مايدعيه بعض المستشرقين من غريزة قوية وجامعة لدى النبي صلى الله عليه واله وسلم ؟ وقد راينا ان عددا مهما من ازواجه كن ارامل وكبار السن ،. وما زواجه منهن الا لدوافع اجتماعية كما اسلفنا .

اضافة الى ان مهام الدعوة الاسلامية باعتباره المسؤول الاول عنها لايمكن ان ينهض بها رجل كل تفكيره في النساء كما يزعمون فواقع تاريخ النبي محمد صلى الله عليه واله وسلم يفيد بانه كان رجلا قامت بمجهوداته دولة الاسلام وانه خصص معظم اوقاته لتلك المهمة ومع ذلك فهو رجل كباقي الرجال يتزوج النساء ويعيش حياته معهن بصورة طبيعية .

<u>الهوامش</u>

١- الساموك ، سعدون محمود ، مناهج المستشرقين ، جامعة بغداد ١٩٨٩ ، ص٢٩ .
٢- قاشا ،سعيد، المستشرقون الانكليز ، بحث في مجلة الاستشراق ، العدد الثاني ، بغداد ١٩٨٧ ،ص١٧.
٣- الساموك . مناهج المستشرقين ، ص٢٩ ، غراب ، احمد عبد الحميد ، الاستشراق وال سعود ، دار العظيم ١٩٩٤ ، ص٣٨,١٦
٤- الساموك مناهج المستشرقين ، ص٢٩
٥- قاشا ، المستشرقون الانكليز ،ص١٧
٦- المصدر نفسه،ص١٧
٧- اللبان ، ابراهيم عبد المجيد ، المستشرقون والاسلام ، مجمع البحوث الاسلامية ، ١٣٩٠ هـ ، ١٩٧٠ م ، ص١٠
٨- الغزالي ، مشتاق بشير حمود ، تطور الاستشراق البرطاني كتابة السير النبوية الشريفة ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية ، جامعة بغداد ٢٠٠١ ، ص٦٣ – ٦٥
٩- سعيد ادوارد ، الاستشراق ، ترجمة كمال ابو ديب ، مؤسسة الابحاث العربية ، بيروت ، ص٧٣ .
١٠- زرزور عدنان محمد واخرون ، الثقافة الاسلامية والتحديات المعاصرة ، مركز الحكمة ، القاهرة ، ١٤١٦ هـ ١٩٩٥ م ، ص١٠٠ -١٠١
١١- ابن سعد ، الحمد بن سعد ، الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت ، ج١ ، ص١٣٢
١٢- حياة محمد الرسول ، ترجمة محمد محمد مزج ، مكتبة مصر ، ص٤٦ .
١٣- المصدر نفسه ، ص٣٥
١٤- المصدر ، السيد رضا ، محمد في القران ، ط٢ ، مطبعة القدس ، ايران ، ١٤٢٠ هـ ، ص١٣٠
١٥- الكهف ، الاية ١١٠
١٦- الشورى ، الاية ٥١
١٧- ابن هشام ، السيرة النبوية ، ص ١٨٨ ، الطبري ، تاريخ الرسل ،ج٢ ، ص٢٩٨
١٨- اليعقوبي ، احمد بن اسحق بن جعفر بن وهب، تاريخ اليعقوبي ، تعليق خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م ، ج٢ ، ص١٥ ، الطبري ، تاريخ الرسل ، ج٢ ، ص٢٩٣ – ٢٩٤
١٩- العلق ، الاية ١ -٥
٢٠- ابن هشام ، السيرة النبوية ، ص ١٩٠ – ١٩١ ، الطبري ، تاريخ الرسل ، ح٢ ، ص٣٠٠-٣٠١
٢١- وات ، مونتجمري ، محمد في المدينة ، ترجمة شعبان بركات ، المكتبة العصرية ، بيروت ١٩٥٢ ، ص٤٩٥ .

٢٢- المصدر نفسه ، ص٤٩٦

٢٣- ادريس جعفر الشيخ ، منهج مونتغمري ، واط دراسة نبوة محمد صلى الله عليه واله وسلم ، بحث في كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الاسلامية ، الرياض ، ١٩٨٥ ، ج١ ، ص٢١٩

٢٤- المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٢١٩

٢٥- المستشرقون ، دراساتهم للسيرة النبوية ، بحث في كتاب المستشرقون وموقفهم من التراث العربي الاسلامي ، مطبعة القضاء ، النجف الاشرف ، ١٩٨٦ ،ص١٤٨ -١٤٩

٢٦- الصغير ، محمد حسين علي ظاهر ، الوعي والمستشرقون ، بحث في كتاب المستشرقون وموقفهم من التراث العربي الاسلامي ،ص٩٧

٢٧- المصدر نفسه ، ص٩٧

٢٨- الاسلام ، ترجمة محمد مصطفى هذاره ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص٧٤

٢٩- المصدر نفسه ، ص٧٥

٣٠- المصدر نفسه ، ص٦٣

٣١- المصدر نفسه ، ص٦٣ الهامش رقم (١) و (٢)

٣٢- المصدر نفسه ، ص١٤٨

٣٣- المصدر نفسه ، ص١٤٩

٣٤- محمد في المدينة ، ص٦٧

٣٥- لويس برنارد ، العرب في التاريخ ، ترجمة نبيه امين فارس ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٥٤، ص٧٢

٣٦- بريجيس واخرون ، تراث الاسلام ، ترجمة وشرح زكي محمد حسن ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٦، ج٢ ، ص١١٢

٣٧- ارنولد السير توماس ، الخلافة (تاريخ الحضارة الاسلامية حتى اخر العهد العثماني) ، تقديم محمد شكري العزاوي ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٥٦ ، ص٢٩ ، لويس ، العرب في التاريخ ، ص٥٥

٣٨- العرب في التاريخ ، ص٥٩

٣٩- المصدر نفسه ص، ٥٥

٤٠- عبقرية محمد ، دار الهلال ، مصر ، ص٤١

٤١- المصدر نفسه ، ص٤١

٤٢- ارنولد ، وكيف سيرت ، الدعوة الى الاسلام ، ترجمة حسن ابراهيم واخرين ، مطبعة الشبكي بالازهر ، مصر ، (د . ت) ، ص٤٧

٤٣- اوليري دي لاسي ، الفكر العربي ومركزه في التاريخ ، ترجمة اسماعيل البيطار ، دار الكتاب البناني ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص١٥٩

٤٤- محمد في المدينة ، ص٤٣٤

٤٥- المصدر نفسه ، ص٤٣٥

٤٦- المصدر نفسه ، ص٤٣٦

٤٧- المصدر نفسه ، ص٤٣٩ – ٤٤٠

٤٨- عبقرية محمد ، ص١٣٩

٤٩- لمزيد من التفاصيل عن ازواج النبي صلى الله عليه واله وسلم ينظر الطبري ،تاريخ الرسل ،ج٢ ، ص١٩٥ -١٩٩